الصبر أساس الانتصار
مفاهيم ونماذج قرآنية

د/ حسين بن علي الزومي
أستاذ التفسير المشارك بقسم القرآن وعلومه
جامعة القصيم

من ١٧٥٩ إلى ١٨٠٤

ملخص البحث:

تناول هذا البحث مفاهيم ونماذج لإيضاح حقيقة الصبر والانتصار من خلال النصّ القرآني، وتمثلت مشكلة البحث في محاولة الوصول إلى المفاهيم الصحيحة للصبر والانتصار من خلال الآيات القرآنية، وذلك عبر بعض النماذج القرآنية، وكان الهدف بيان المفهوم الصحيح للصبر والانتصار، والعلاقة بينهما، وتوضيح حقيقة الابتلاء بالأعداء، وإبراز صبر موسى ويوسف عليهما السلام على الابتلاء، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، وإظهار عاقبة ذلك بالانتصار؛ معتمداً في ذلك على المنهج الاستنباطي لاستخراج الحقائق القرآنية مدعّمة بالأدلة الواضحة؛ وقد كان من أهم النتائج: أن كلمة (الصبر) تستخدم بحسب سياقاها في الآيات القرآنية، وأن الصبر يأتي في القرآن بصور شتى مؤداها وعاقبتها الانتصار، وأن سنة الله الكونية اقتضت أن يكون للمؤمنين أعداء لما فيه من الابتلاء والتمحيص الذي هو سبب ظهور الصبر، ومن ثمّ عاقبته الانتصار، وأن موسى عليه السلام عَرَف أن الصبر من مؤهلات أرباب القيادة، وطبّق ذلك، وأن يوسف عليه السلام بيّن أن الانتصار الكبير ما حدث إلا بسبب الصبر، وأن الانتصار الذي حصل للصحابة رضي الله عنهم جاء مشروطا بالصبر، وقد وفّوا بذلك وانتصروا من بعد ذلّة.

الكلمات المفتاحية: الصبر؛ الانتصار؛ مفاهيم قرآنية؛ موسى عليه السلام؛ يوسف عليه السلام؛ الصحابة.

Patience is the basis of victory
concepts and examples from the Qura'an

Dr. Hussein Ali Omar Alzomi
Al Qassim University

Abstract:

This research dealt with concepts and models to clarify the mention of patience and victory through the Quranic text. The Problem of the research was to try to reach the real concepts of patience and victory through the Quranic verses through some examples and role models from the Quran .The aim was to clarify the real meanings of patience and victory ,and the link between them, And to clarify the fact of being plagued by enemies, and to highlight the patience that Moses and Joseph peace be upon them had when were plagued by enemies, as well as the companions of the Prophet, May Allah Bless Them All, and to show that the consequence of patience is victory; relying on the deductive approach to extract the Quranic facts supported by clear evidence; The most important results were: The word (Patience) is used according to the context in the Quranic verses, and that patience comes in the Quran in various forms all of them lead to the fact that the consequence of patience is victory, and that Sunnatullah (the Law of Allah) on earth required that the believers have enemies for what it is has of plague and scrutiny which are the reason for the emergence of patience, and it's consequence (victory), and Moses peace be upon him defined patience to be one of the qualifications of leadership, and applied it , And Joseph peace be upon him showed that the Great Victory happened only because of patience, and the victory that happened to the Companions ,May Allah Bliss Them All, came conditioned by patience, and they did so and won after the humiliation.
Keywords: patience; victory; Quranic concepts; Moses peace be upon him; Joseph peace be upon him; companions.

المقدمة

الحمدلله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى آلــه وصحبه. وبعد:

فيرتبط الصبر ارتباطاً وثيقاً بالنصر، بل إن الصبر هو أساس الانتصار وقاعدتــه، وباستقراء قصص القرآن نجد أن جميع الأنبياء والمرسلين تلقوا أنواع الأذى والطعن من قبل قومهم، فصبروا صبراً عظيماً؛ وذلك ليقينهم وإيمانهم أن النصر مع الصبر، يقــول ســـــبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام : ٣٤].

والصبر حاجة ملحّة في كلّ أمور الحياة، فلابد من الصبر على جهــاد الــنفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجّح الباطل، والصبر علـــى طول الطريق وبطء المراحل.

إن كلمة صبر قصيرة سهلة لا تتجاوز ثلاثة حروف، يستطيع كــل إنســان أن ينطقها، وأن يوصي بها، ولكن معاناها أمر آخر. إنها تتمثل في إرادة قوية تسيطر على الغرائز والشهوات، وتصمد أمام الحرمان والمصاعب والمشاق، وتواجه المحن، وتجابــه التحديات.

ولأهمية هذا الأمر خصوصاً في زمننا الذي تكالب فيه أعداؤنا علينا، فقد جاء هذا البحث بعنوان: الصبر أساس الانتصار: مفاهيم ونماذج قرآنية.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث من خلال النقاط التالية:

- كثيراً ما يأتي القصص القرآني لتكريس مفهوم العلاقة الكبيرة بـــين الصبر والانتصار، والتي هي بحاجة لإبرازها لعامّة المسلمين وخاصتهم.

- ما وصل إليه حال المسلمين اليوم، من الأوضاع المزرية، والنكبات المتتالية، والتي نحن أحوج ما نكون فيها إلى الصبر حتى نصل إلى العاقبة الحميدة.
- الإسهام في تأصيل الاستنباط القرآني، وإثبات أن الكنوز القرآنية ما زالت لم تنضب، وأنها متجددة بتجدّد الحياة.

وموضوع البحث جديد، ولم أجد ـــــ على قدر جهدي ـــــ من كتب فيه بحثاً أكاديمياً بشكل مستقل، إلا ما كان في ثنايا بعض الرسائل، أو المقالات المتفرقة؛ التي لم تستهدف الحديث في هذا الجانب العلائقي بين الصبر والانتصار من خلال النص القرآني، وبالتالي فالبحث يتميّز بالجدّة في الطرح.

مشكلة البحث: تتمثل مشكلة البحث في محاولة الوصول إلى المفاهيم الصحيحة للصبر والانتصار من خلال الآيات القرآنية، وذلك عبر بعض النماذج والقدوات القرآنية، وتتحدّد المشكلة في الأسئلة الآتية:

- ما المفهوم الصحيح للصبر والانتصار؟ وما العلاقة بينهم؟
- لماذا كان الابتلاء بالأعداء؟ وما مدى التلازم بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الصبر؟
- علامَ صبَر موسى عليه السلام؟ وكيف كانت العاقبة؟
- **علام صبَر يوسف عليه السلام؟ وكيف كانت العاقبة؟**
- **علام صبَر الصحابة رضي الله عنهم؟ وكيف كانت العاقبة؟**

هدف البحث: يهدف هذا البحث إلى:

- بيان المفهوم الصحيح للصبر والانتصار، والعلاقة بينهما.
- توضيح حقيقة الابتلاء بالأعداء، ومدى التلازم بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الصبر.
- إبراز صبْر موسى عليه السلام على الابتلاء، وإظهار عاقبة ذلك بالانتصار.
- إبراز صبْر يوسف عليه السلام على الابتلاء، وإظهار عاقبة ذلك بالانتصار.

• إبراز صبْر الصحابة رضي الله عنهم على الابتلاء، وإظهار عاقبة ذلك بالانتصار.

حدود البحث: يقوم هذا البحث بتسليط الضوء على بعض المفاهيم القرآنية للصبر والانتصار من خلال النصّ القرآني، مستدلاً على ذلك ببعض النماذج الواردة في الآيات القرآنية، ولا يعني الباحث أن يستوعب كل ما ورد عن الصبر في القرآن الكريم، ولا جميع النماذج.

منهج البحث: اعتمد الباحث على المنهج الاستنباطي، القائم على النظر والتأمل في النصّ القرآني، لاستخراج حقائق القرآن، واستنباط معانيه.

خطة البحث:

تتكون الدراسة من مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

– المقدمة: وفيها بيان مشكلة البحث، وأهمية موضوع البحث، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، وخطة الدراسة.

– مباحث الدراسة:

المبحث الأول: مفهوم الصبر والانتصار في القرآن، ويشتمل على الآتي:

المطلب الأول: تعريف الصبر وأهميته.

المطلب الثاني: تعريف الانتصار وحقيقته في القرآن.

المطلب الثالث: العلاقة بين الصبر والانتصار.

المبحث الثاني: سنن الصبر الربانية، ويشتمل على الآتي:

المطلب الأول: الابتلاء بالأعداء والمصابرة في ذلك.

المطلب الثاني: ملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للصبر.

المبحث الثالث: صبر موسى عليه السلام، ويشتمل على الآتي:

المطلب الأول: عمق المحنة والابتلاء.

المطلب الثاني: المدافعة بالصبر والعاقبة بالانتصار.

المبحث الرابع: صبر يوسف عليه السلام، ويشتمل على الآتي:

المطلب الأول: عمق المحنة والابتلاء.

المطلب الثاني: المدافعة بالصبر والعاقبة بالانتصار.

المبحث الخامس: صبر الصحابة رضي الله عنهم، ويشتمل على الآتي:

المطلب الأول: عمق المحنة والابتلاء.

المطلب الثاني: المدافعة بالصبر والعاقبة بالانتصار.

الخاتمة: وفيها بيان أهم النتائج التي توصلتُ إليها.

المبحث الأول

مفهوم الصبر والانتصار في القرآن

المطلب الأول: تعريف الصبر وأهميته:

يرى ابن فارس أن أصل الصبر في اللغة يعود إلى "أصول ثلاثة، الأول الحَبْس، والثاني أعالي الشيء، والثالث جنسٌ من الحجارة."(١)، ثمّ إن الكلمة أصبحت تستخدم في حبس النفس عن الجزع، وبابه ضرب، وصَبَرهُ أي حبسه(٢)، أما الراغب الأصفهاني فيرى أن أصلها اللغوي هو: الإمساك في ضيق(٣).

أما حقيقته: "فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها"(٤). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الكهف: ٢٨]، يقول الراغب: هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع(٥).

---

(١) ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن زكَرِيّا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، بدون ط.(اتحاد الكتاب العرب١٤٢٣ هـ -٢٠٠٢م)، ٣/ ٢٥٦

(٢) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، (مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ١٤١٥ – ١٩٩٥)،١/ ٣٧٥

(٣) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، د.ط (دار القلم – دمشق) ١/ ٥٦٥

(٤) ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبوبكر بن أيوب، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق، زكريا علي يوسف، (دار الكتب العلمية – بيروت) ص٨

(٥) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ١/ ٥٦٥

والصَّبر أيضا: هو كفُّ النَّفس وحبسُها عن التسخّط مع وجود الألم، وتمنّي زوال ذلك، وكفُّ الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، وقال بعض السَّلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصَّبر[1].

وقد يخلط البعض بين مفهوم (الصبر) و(قسوة القلب)، فالصبر خلق كسبي وهو حبس النفس عن التسخط، واللسان عن التشكّي، والجوارح عما لا ينبغي، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية. أما القسوة فغلظة في القلب تمنعه من التأثّر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته، لا لصبره واحتماله، وهو يبس في القلب يمنعه من التفاعل مع الأحداث[2].

وفي المصطلح القرآني: جاء الصبر متوافقاً مع المعنى اللغوي، ويستخدم بحسب سياقاته في الآيات القرآنية، فهو "لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضادّه الجزع، وإن كان في محاربة سمّي شجاعة، ويضادّه الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضادّه الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتمانا، ويضادّه المذل، وقد سمى الله تعالى كلّ ذلك صبراً ونبّه عليه"[3]، فقال سبحانه في المصيبة: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [سورة الحج، الآية:٣٥]، وقال في حالة الفقر والمرض والحرب: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [سورة البقرة، الآية:١٧٧]، وقال سبحانه في إمساك الكلام: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٣٥]، وكذلك سمّى سبحانه الانتظار صبراً؛ لما كان حق الانتظار أن لا ينفكّ عن

---

(1) ابن رجب الحنبلي: أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ط١، (دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٨ه)، ١/ ١٩٥

(2) ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، الروح، د.ط، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٥م) ، ص٢٤١

(3) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ١/ ٥٦٥.

الصبر، بل هو نوع من الصبر ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة الطور، الآية:٤٨] ، أي انتظر(١).

ومّما يدلّ على أهمية الصبر أن الصبر من الإيمان بمترلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "خير عيش أدركناه بالصبر"(٢)، ولذلك قال بعض السلف: الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر. لأن أهل الصبر هم الذين ينتفعون حقيقة بالآيات والعبر، يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[سورة إبراهيم، الآية: ٥].

وسمّى الله سبحانه أهل الصّبر بالمحسنين، والإحسان أعلى درجات الإيمان، يقول سبحانه: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[سورة هود، الآية: ١١٥] ، وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة يوسف، الآية: ٩٠] ورتب على الصبر أجراً عظيماً لا ينفد ولا ينتهي فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر، الآية: ١٠] أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند اللّه، وأنه معين على كل الأمور(٣).

---

(١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ١/ ٥٦٥، وما بعدها.

(٢) ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبوبكر بن أيوب، (المتوفى:٧٥١)، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط٢٧ (مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م)، ٤ ٣٣٣\

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط ١، (مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م)، ١/ ٧٢٠

ولما لهذا الخلق المهم من أثر كبير على الحياة كلها أمرنا الله به، بقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[سورة البقرة، الآية:٤٥] ، قال ابن عاشور: الأمر بالاستعانة بالصبر لأنه ملاك الهدى فإذا تدرّعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق(١)، ونهى عن ضده بقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[سورة الأحقاف، الآية:٣٥] .

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه(٢)، إذا فالصبر ليس ملكا نفسيا بل يجب الاستعانة بالله عليه، والدليل ما قاله السحرة لفرعون حين أراد الانتقام منهم بالتعذيب ومنه قوله ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[سورة الأعراف، الآية، ١٢٦]، أي: ما تعيب علينا وما تنكر منا إلا إيماننا(٣).

المطلب الثاني: تعريف الانتصار وحقيقته في القرآن:

قال ابن فارس: النون والصاد والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على إتيان خَيرٍ وإيتائه، ونَصَر اللهُ المسلمين: آتاهمُ الظَّفرَ على عدوِّهم، ينصرهم نَصْرا(٤)، والنصر عند أهل

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، بدون ط (الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـ)، ١/٤٧٧

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ط ٢، (دار الكتاب العربي – بيروت ١٣٩٣ – ١٩٧٣)، ٢\١٥٣-١٥٦، ابن القيم، عدة الصابرين، مرجع سابق، ٦١

(٤) السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: د.محمود مطرجي، د.ط، (دار الفكر – بيروت)، ١/ ٥٥٥

(١) ابن فارس، مرجع سابق، ٥/ ٤٣٥

التفسير على أوجه منها، كما قال ابن الجوزي: الْمَنْع، يقول سبحانه: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الصفات، الآية: ٢٥].

الظفر، يقول سبحانه: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٠].

الانتقام، يقول سبحانه: ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[الشورى: ٤١] [١].

وقد بيّن سبحانه أن النصر بيده وحده في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [سورة الانفال، الاية: ١٠] قال الآلوسي: فإن حقيقة النصر مختص به عز اسمه ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه، وهذا الخطاب نحو المؤمنين تشريفاً لهم وإيذاناً بأنهم هم المحتاجون لما ذكر[٢]، ونظير هذه الآية، قوله سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[سورة الأنفال، الآية: ١٠] ، وقوله أيضا: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٦٠].

---

(٢) ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط١،(مؤسسة الرسالة – لبنان / بيروت – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م)، ١/ ٥٨٦

(٣) الآلوسي، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، د .ط (دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥)، ٢/ ٢٦٢

وقد وعد الله الصابرين بالنصر فقال: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٢٥] أي: إن تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري[1]، يقول الطبري: إنما كان الله عز وجل وعد نبيه صلى الله عليه وسلم إمدادَهم بهم إن صبروا واتقوا الله[2].

وقد جاءت الآيات القرآنية بوضع شروط خاصة بالنصر لمن أراده، وهي:

أولا: الصبر والتقوى، يقول سبحانه: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[سورة ال عمران، الآية، ١٢٥]

ثانيا: عدم اتخاذ الأولياء من غير المؤمنين، يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[سورة هود، الآية: ١١٣].

ثالثا: الإيمان واليقين الجازم بأن النصر بيد الله وحده، يقول سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[سورة ال عمران، الآية: ١٢٦]

---

[1] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. ٢، (دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م) ، ٢/ ١١٣

[2] الطبري، محمد بن جرير بن يزيد الآملي، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، (مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م)، ٧/ ١٨٤

رابعا: التوكل، يقول سبحانه: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٦٠].

خامسا: النصرة لدين الله، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[سورة محمد، الآية:٧].

سادسا: الإنابة إلى الله وعدم المعصية، يقول سبحانه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾[سورة هود، الآية: ٦٣] .

سابعا: إعداد القوة، يقول سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ﴾ [سورة الأنفال، الآية، ٦٠].

المطلب الثالث: العلاقة بين الصبر والانتصار

وضع الله لنا قانونا ومنهجا للتعامل مع الأعداء حتى لا نقع في كيدهم، ومن أهمّ تلك القوانين والسنن قانون الصبر، والذي يكون مآله الانتصار، يقول سبحانه: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٢٥-١٢٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ ﴾ [سورة آل

عمران، الآية:١٨٦] يقول ابن تيمية: وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا في غير ما موضع من كتابه، وبيّن أنه ينتصر العبد على عدوّه من الكفار المحـاربين المعانـدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة[١].

وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[٢]، كما قال سـبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة السـجدة، الآية: ٢٤] أي حين صبروا على دينهم وعلى البلاء من عدوهم [٣].

ويأتي الصبر في القرآن بصور شتى مؤداها وعاقبتها الانتصار، الانتصار أولا علـى النفس الأمارة بالسوء، ثمّ الانتصار على الأعداء في محيطنا الخارجي، فنجـد مـثلاً في الصبر على الأذى، قوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[سورة لقمان، الآية: ١٧] وفي الصبر والغفران، قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سـورة الشورى، الآية: ٤٣]، وفي صفات الأنبياء والثبات على الحق، مع تسلية للذين جاءوا من بعدهم، قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[سورة الأحقاف، الآية: ٣٥] ،

---

(١) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، أبو العباس، مجموع الفتاوى، تحقيق : أنور الباز – عامر الجزار، ط ٢، (دار الوفاء، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، ١٠/ ٦٧٥.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، مرجع سابق، ٢\١٥٣-١٥٦، ابن القيم، عدة الصابرين، مرجع سابق، ٥٧-٦١

(٣) البغوي، محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق : محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، ط ٤، (دار طيبة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م) ٦/٣٠٩

بل إننا نجد أهمية الصبر في أعظم مواطن الجهاد وقتال الأعداء والمواجهة المحتدمة، فدعاء المجاهدين آنذاك: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفي الدعاء ذاته من المعاني التربويّة الكثير، من طلب الصبر والثبات من الله، وتحقيق نتيجة الانتصار بإذن الله، ويدعون الله ويطلبونه أن يصب عليهم الصبر صبًّا حتى يفيض عليهم ويغمرهم وهو الإفراغ(١).

والإفراغ: الصب، يقال: أفرغت الإناء إذا صببت ما فيه، قال البقاعي: "الإفراغ هو السكب المفيض على كلّية المسكوب عليه(٢)". وأصله من الفراغ، يقال: فلان فارغ، معناه: أنه خال مما يشغله، والإفراغ إخلاء الإناء مما فيه، وإنما يخلو بصبّ كل ما فيه(٣).

والمقصود بالصبر ههنا: حبس النفس للقتال(٤). وهنا معنى بلاغي عجيب: حيث دعوا الله وسألوه أن يصبّ عليهم الصبر حتى يكون مستعلياً عليهم (٥)، ويكون الصبر لهم كالصندوق وهم في داخله وقد امتلؤوا به وأحاط بهم من كل جانب. وفيه نوع من الاستعارة أيضاً لقوة الصبر بكثرة الصبر، "فإن القوة والكثرة يتعاوران الألفاظ الدالة عليهما. كقول أبي كبير الهذلي:

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير، ط١،(دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت١٤١٤ هـ) (٢/٢٣٥).

(٢) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط١، (الهند، حيدرآباد الدّكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩١ه)، ٣/٤٣٦

(٣) الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، مفاتيح الغيب، ط٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت– ١٤٢٠) ٦/٢٠٢، وانظر: البغوي، معالم التنزيل ١/٣٠٢

(٤) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط، (دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ه.)،٢/٢٧٧ – الألوسي، روح المعاني٢/١٧٢

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧٧

كثير الهوى شتى النوى والمسالك

فاستعير الإفراغ هنا للكثرة مع التعميم والإحاطة [١]".

ومعنى (ثبّت): مأخوذ من (ثبت): بمعنى استقر ورسخ، وثبّته أقره ومكنه بحيث لا يتزحزح[٢]، و(التثبيت) تفعيل من الثبات وهو التمكن في الموضع الذي شأنه الاستزلال[٣]. و(الأقدام) جمع قدم وهو "ما يقوم عليه الشيء ويعتمده [٤]" . والقدم: الرِّجل، وهي مؤنثة، تقول في تصغيرها (قُدَيْمة)، والاشتقاق في هذه الكلمة يرجع لمعنى: التقدُّم[٥].

والمقصود بـ (تثبيت الأقدام): كناية عن تقوية القلوب وتشجيعها حتى لا تفرّ الأقدام وتنهزم القهقرى [٦]. قال الألوسي: "هب لنا كمال القوة والرسوخ عند المقارعة بحيث لا تتزلزل، وليس المراد بتثبيت الأقدام مجرد تقررها في حيّز واحد! إذ ليس في ذلك كثير جدوى[٧]".

وهناك لفتة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة: الصبر وتثبيت الأقدام والنصر، فكل فقرة مبنية على ما قبلها وترتيبها ترتيبًا مرحليًّا، فعند مواجهة الأعداء يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر– بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة – فإذا صبر حاز المرحلة الثانية وهي ثباته وتثبيت قدميه، ولن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين، وإذا ثبتت الأقدام واستبسل المجاهد في القتال نصره الله على الأعداء؛ لأن النصر مع الصابرين، أي جرت سنته بأن

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير٢/٤٩٩

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٩

(٣) البقاعي، نظم الدرر ٣/٤٣٦

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٩

(٦) ابن جرير، جامع البيان ٢/٦٣٨ – ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، ط٣، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤ه)، ١/٢٤٧

(٧) الألوسي، روح المعاني ٢/١٧٢

يكون النصر أثراً للثبات والصبر، وأن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم وهذا مشاهد في كل زمان(١).

ويكفي الصابر معية الله سبحانه التي أكدها للصابرين في كتابه الكريم مراراً وتكراراً، ولله ما أصدق كلام الإمام الشوكاني وأروعه حين قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[الأنفال: ٤٦]: "ويا حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات، وإن كانت كثيرة"(٢).

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط٢، (مصر: مطبعة المنار، ١٣٥٠هـ) (٤٩٢/٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣١٥/٢)

المبحث الثاني

سنن الصبر الربانية

المطلب الأول: الابتلاء بالأعداء والمصابرة في ذلك:

دفع الله للناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعة في البشر؛ لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٥١] ليس نصًا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة [(١)].

وقد قضت سنة الله في الكون أن يكون للمؤمنين أعداء من المتربصين الذين لا يألونهم إلا خبالا، ولذلك قال الله تعالى تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته أيضا ليكونوا على وعي وحذر: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[سورة الأنعام، الآية:١١٢] ، أي كما خلَّينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأعدائهم لم نمنعهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر خلاف الظاهر[(٢)]. والآيات واضحة في بيان سنّة الابتلاء بالأعداء: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار (٢/٤٩٨)

(٢) الآلوسي، مرجع سابق، ٤/ ٢٥٠

﴾[سورة ال عمران، الآية:١٨٦].

والناظر في القرآن الكريم يفهم الحكمة الإلهية في الابتلاء ألا وهي التمحيص والتمييز بين الصادق والكاذب، والمجاهد والصابر، والخبيث من الطيب، خلاف ما يظنه كثير من الناس أنهم إذا آمنوا لا يفتنون، وقد رد الله هذه الفكرة القاصرة على عدم فهم سنة الله في الأولين، وفي هذه الأمة بقوله ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العنكبوت، الآية:١-٣]، وقوله أيضا ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[سورة البقرة، الآية:٢١٤] ، " يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم،{ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ } أي: الفقر { وَٱلضَّرَّآءُ } أي: الأمراض في أبدانهم { وَزُلۡزِلُواْ } بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، حتى وصلت بهم الحال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به"(١).

إنها الحكمة التي تتجلى في قوله سبحانه: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، وقوله أيضا: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٧٩]، والمراد بميز الخبيث من الطيب، أي: ظهوره للناس كي يعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، ومن أهل الإيمان من أهل النفاق،

---

(١) السعدي، مرجع سابق، ١/ ٩٦.

وهذا لا ينفي علمه سبحانه لأن علمه أزلي يعلم ما كان وما يكون وما سيكون ويدل على ذلك قوله تعالى:﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٥٤] [١]، وقوله أيضا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد، الآية: ٣١]، والمراد ب(وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) نبلوا أخبار إيمانكم وموالاتكم فيظهر صدقها وكذبها[٢]، وهذا "يشمل الصبر في الجهادين: جهادُ العدوِّ الظاهر ، وجهادُ العدوِّ الباطن ، فمن صبرَ فيهما ، نُصِرَ وظفر بعدوِّه، ومن لم يصبر فيهما وجَزِعَ، قُهِرَ وصار أسيراً لعدوّه، أو قتيلاً له"[٣].

وهنا قضية مهمة يجدر بنا الاهتمام بها وهي أن الابتلاء بالأعداء لا يعني طلب استعجال القتال، فإن الشخص لا يدري هل يثبت أم لا؟ ولذلك قال النبي ﷺ: {لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا [٤]}، "فالحاصل أنه على العاقل المعتقد جهله بالعواقب وشمول قدرة ربه أن لا يثق بنفسه في شيء من الأشياء، ولا يزال يصفها بالعجز وإن ادعت خلاف ذلك، ويتبرأ من حوله وقوته إلى حول مولاه وقوته ولا ينفكّ يسأله العفو والعافية[٥]".

ثمّ مع عظم هذا الابتلاء أمرنا سبحانه بالمصابرة في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [سورة آل

---

(١) الطبري، مرجع سابق، ١٨٥/٢٢ والشنقيطي، مرجع سابق، ٧/ ٣٨٥

(٢) الآلوسي، مرجع سابق، ١٣/ ٢٣٣.

(٣) ابن رجب الحنبلي، مرجع سابق، ١/ ١٩٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، ١٠/١٢٤ رقم ٢٩٦٦، وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، ١٦٩/٩ رقم ٤٥٤٢

(٥) البقاعي، مرجع سابق، ٤٤٣/٣

عمران، الآية: ٢٠٠] فأمر الله تعالى بالصبر على الطاعة وعن الشهوات، والمصـــابرة والرباط[١]، وهو نداء جامع للمؤمنين، دعاهم فيه إلى الصـــبر والمصـــابرة والمرابطـــة والتقوى[٢]، قال ابن عاشور:" أمرهم بالصبر الذى هو جمـــاع الفضـــائل وخصـــال الكمال"[٣]، وقال الزمخشري:" صابروا أعداء الله في الجهاد، أي غالبوهم في الصـــبر على شدائد الحرب ولا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا، والمصابرة باب من الصـــبر"[٤]، والمصابرة أي: الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال[٥].

ونلاحظ في الآية الكريمة أن الله أمرهم بالصبر وهو حـــال الصـــابر في نفســـه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يـــرابط، وقـــد يصـــبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقـــوى وأن الفلاح موقوف عليها فقال {وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٦]، قال الآلوســـي:" المـــراد بالأمر ما يعم أقسام الصبر الثلاثة المتفاوتة في الدرجة الواردة في الخبر، وهو الصبر على المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، وَصابِرُوا أي اصبروا علـــى شـــدائد الحـــرب مـــع أعـــداء الله تعـــالى صـــبرا أكثـــر مـــن صـــبرهم[٧]".

---

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيـــز، ط ١، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، (دار الكتب العلمية – بيروت –١٤٢٢ هـــ)، ١/ ٥٥٩؛ والقـــرطبي، مرجع سابق، ٤/ ٣٢٢

(٢) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط ١، (دار نهضة مصر، الفجالة القاهرة)، ٢/ ٣٨٢

(٣) ابن عاشور، مرجع سابق، ٤/ ٢٠٨–٢٠٩

(٤) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقـــائق غـــوامض التنزيل، ط٣، (دار الكتاب العربي – بيروت ١٤٠٧ ﻫ)، ١/ ٤٦٠.

(٥) السعدي، مرجع سابق، ١/ ١٦٢.

(٦) ابن القيم، عدة الصابرين، مرجع سابق، ١/ ٢١.

(٧) الآلوسي، مرجع سابق، ٢/ ٣٨٤

المطلب الثاني: ملازمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للصبر:

خاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾[سورة طه، الآية:١٣٢] أي قومك. وقيل: من كان على دينك[١].

وهذا لقمان الحكيم يوصى ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع بيان أنه ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى صبر عظيم، يقول سبحانه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾[سورة لقمان، الآية: ١٧]، وقال تعالى في شأن نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾[سورة الطور، الآية: ٤٨] وفي موضع آخر قال لنبيه: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[سورة القلم، الآية: ٤٨] ، يقول ابن تيمية: "لا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به، فقيها فيما ينهي عنه، رفيقا فيما يأمر به، رفيقا فيما ينهي عنه، حليما فيما يأمر به، حليما فيما ينهي عنه[٢]".

ولقد أوجب الله تعالى على كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر حسب قدرته وعلمه، يقول سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٠٤]، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن

([١]) البغوى، مرجع سابق، ٣/ ٢٨١

([٢]) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ط١، (: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ)، ص٢١

كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه(١)، لذلك مدح الله هذه الأمة وأخبر أنها خير الأمم التي أخرجها للناس بتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١١٠].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو علامة لمن ينصر هذا الدين، وبها يعرف، وأن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتّصف بهذا الوصف، فهو كاذب في دعواه، يقول سبحانه: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[سورة الحج، الآية: ٤١] ، والولاية الدينية يقوم بمقتضاها وليُّ الأمر الحاكم بتعيين من يتولى مهمة الأمر بالمعروف إذا أظهر الناسُ تركه، والنهي عن المنكر إذا أظهر الناس فعله، صيانة للمجتمع من الانحراف، وحماية للدين من الضياع، وتحقيقا لمصالح الناس الدينية والدنيوية وفقاً لشرع الله تعالى(٢)، يقول الإمام النووي: واعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيعه كثير من الناس في أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم نادرة جدا وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عمّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه (٣).

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٩١

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، الحسبة والإسلام، ط ٢، تحقيق: علي بن نايف الشحود، ١/٢.

(٢) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط٢، (: دار إحياء التراث العربي – بيروت،الطبعة ١٣٩٢)، ٢/ ٢٤.

المبحث الثالث

صبر موسى عليه السلام

المطلب الأول: عمق المحنة والابتلاء

قصّ الله علينا نبأ نبي الله موسى عليه السلام من حين وُلد؛ وذلك أنه عليه السلام وُلد في زمن الجبروت والتسلّط الفرعوني، وقد استعلى فرعون في الأرض واستكبر، وبغى وطغى وتجبّر، وقهر وبطش، وجعل أهل مصر فرقا وأحزابا مختلفة، وجعل بني إسرائيل أذلّة خدما مقهورين، ثم مارس معهم سياسة التطهير العرقي، يستأصلهم بذبح أبنائهم الذكور، ويبقي إناثهم أحياء، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[سورة القصص، الآية: ٤]، "وكان هؤلاء لضعف إيماهم لا يدركون غاية رسالة الإسلام التي ركزت في مقصودها العام على تحقيق الوحدة والإصلاح والعدل ونشره، ومحاربة الظلم وسدنته، والحدّ من غطرسة أهل الاستكبار والبغي، والعمل على مناصرة المستضعفين المظلومين في كل مكان"[١]، قال تعالى ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[سورة القصص، الآية: ٥-٦].

ولذلك أرسل الله نبيه موسى عليه السلام بآيات دالة على وحدانية الله وقدرته إلى فرعون وقومه فلما جاءهم بالآيات التي تؤيده وتصدقه سارعوا إلى السخرية منها، بدون تأمل أو تدبر، شأن المغرورين الجهلاء، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا

([١]) الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير الوسيط، ط ١،(: دار الفكر – دمشق، ١٤٢٢ هـ)، ٣ /١٩٠١

﴿يَضۡحَكُونَ ٤٧﴾[سورة الزخرف، الآية: ٤٧]، فاستهزءوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها[١]، وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾[سورة الشعراء، الآية: ١٨-١٩]، أراد بذلك المنّ عليه، والاحتقار له، أي: ربيناك لدينا صغيرا، ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال ولبثت فينا من عمرك سنين فمتى كان هذا الذي تدعيه؟[٢]، قال القرطبي: إنما ضحكوا منها استهزاءً وسخرية، ليوهموا أتباعهم أن تلك الآياتِ سحرٌ، وأنهم قادرون عليها[٣].

ومن شدة الابتلاء أيضا أنه إذا أصابتهم السنين أو نقص الثمرات يسندون هذا مباشرة لموسى عليه السلام، وقد رد عليهم القرآن: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ

---

(١) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (المتوفى: ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١، (: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨ هـ)، ٥/ ٩٢

(٢) الشوكاني، مرجع سابق، ٤/ ١١٢

(٣) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢ (: دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م)، ١٦/ ٩٧،

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٣٠ - ١٣٥ وفي موضع آخر: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[سورة الزخرف، الآيــة:٤٨] .

وهم مع كل ذلك إذا حلت بهم الكارثة رجعوا إلى موسى عليه السلام متذللين نفاقا، وقالوا له: بما خصّك اللّه وفضلك به، ادعوه أن يكشف عنا العذاب إنــا لمهتــدون: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[سورة الزخرف، الآية: ٤٩-٥٠]، وهذا كقولــه تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[سورة الأعراف، الآية: ١٣٥].

وعندما خاف فرعون من الآيات الباهرات التي جاء بها موسى عليه السلام، بــدأ في استخدام سلاح السخرية وكيل الاتهامات لنبي الله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾[سورة الزخرف، الآية:٥١-٥٢]، ويعني بقوله {مهين} كما قال سفيان: حقير، وقال قتادة والسدي: ضعيف، وقال ابن جرير: لا ملك له ولا سلطان ولا مال، أما اتهامه بأنه:{وَلَا يَكَادُ يُبِينُ } فيعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عيي حصر، قال السدي: {وَلَا يَكَادُ يُبِينُ } أي: لا يكاد يفهم، وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني عيي اللسان، وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير[1].

([1]) ابن كثير، مرجع سابق، ٧/ ٢٣١

ثم يضيف فرعون إلى قاموس السخرية والتشكيك أنه لو كان موسى ملكـــا أو رسولا، فلم لا يتحلّى بأساور الذهب، أو يأتي إلينا ومعه الملائكة محيطين به: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [سورة الزخرف، الآية: ٥٣]، يقول ابن كثير: "وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنمـــا حمله على هذا الكفر والعناد، بل هو المهين الحقير خِلْقةً وخلقا ودينا، وموسى عليـــه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار"(١).

وبعد أن أصاب فرعون الهزيمة والخذلان في معركـــة الطغيـــان والإيمـــان، ورأى مسارعة الناس إلى الدخول في طريق الحق بعد أن تبين لهم، قال الوجهاء والزعماء من قوم فرعون له على سبيل التهييج والإثارة: أتترك موسى وقومـــه أحـــراراً آمـــنين في أرضك، ليفسدوا فيها بإدخال الناس في دينهم، قال فرعون مستكبرا: لا ، بل سنفعل بهم ما كنا نفعل بهم من قبل، وهو تقتيل الأبناء وترك الإناث أحياء، وهم تحت قهرنـــا وبين أيدينا ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه، يقول ســـبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الاعـــراف، الآيـــة:١٢٧] قـــال الراغب :كلمة القهر، تعنى الغلبة والتذليل معا، ويستعمل في كل واحـــد منـــهما(٢).

وقال سبحانه في موضـــع آخـــر، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾

(١) ابن كثير، مرجع سابق،٧ / ٢٣١

(٢) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ٢/ ٢٦٥

﴾[سورة غافر، الآية: ٢٥]، أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولا؛ كي يصدوا عن مناصرة موسى عليه السلام وما كيد الكافرين إلا في ضياع[١].

ثم جاء التحذير لموسى عليه السلام بالسجن: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[سورة الشعراء، الآية: ٢٩]، وكان سجن فرعون أشد من القتل؛ لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت[٢]، ثم التحذير بالقتل أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[سورة غافر، الآية:٢٦].

المطلب الثاني: المدافعة بالصبر والعاقبة بالانتصار

كانت وصية موسى لقومه بعد أن عانوا من شدّة الابتلاء ما ذكره الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٢٨-١٢٩]. فهذا موسى عليه السلام يوصيهم ويقول: سلوا الله التوفيق واصبروا على أذاهم حتى يأتيكم الفرج[٣]، قال الألوسي: {إِنَّ الأرض للَّهِ} أي: أرض مصر أو الأرض مطلقاً وهي داخلة فيها دخولاً أولياً[٤].

([١]) البيضاوي، مرجع سابق، ص ٥/ ٥٥

([٢]) الشوكاني، مرجع سابق، ٤/ ١١٤

([٣]) السمرقندي، مرجع سابق، ١/ ٥٥٦.

([٤]) الآلوسي، مرجع سابق، ٥/ ٣٠.

وبعد أن جحد فرعون وقومه هذه المعجزات التي جاء بها موسى من عند ربه تعالى، مع أن أنفسهم قد علمت علما لا شك معه أنها معجزات وليست سحرا، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم ظُلْماً وَعُلُوًّا ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، الآية:١٤]، وأوحى الله إلى موسى بأن يسري ببني إسرائيل ليلاً تلطفا بهم، بعد أن ظلوا تحت ظلم فرعون مدة طويلة، ومع ذلك تبعهم فرعون وجيشه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[سورة الشعراء:٦١-٦٢]، بلهجة الواثق قال موسى: إن الله سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة[1].

ولقد علم موسى عليه السلام أن الصبر من مؤهلات أرباب القيادة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[سورة السجدة، آية ٣٢:٣٣]، ويقول سبحانه﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾[سورة الأعراف، آية ١٣٧]، فبنو إسرائيل لما كانوا مستضعفين، وحقّقوا في أنفسهم مرتبة (الصبر) منحهم الله السيادة والقيادة [2].

---

(1) السمرقندي، مرجع سابق، ٢/ ٥٥٦.

(2) الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الاسلامية وأسسها، ط٥، (دمشق: دار القلم، ١٤٢٠ه)، ٣٢٨/٢

المبحث الرابع: صبر يوسف عليه السلام

المطلب الأول: عمق المحنة والابتلاء

كان ليوسف عليه السلام إخوة، ولما رأي يوسف في منامه رؤيا عجيبة أخبر والده النبي الكريم يعقوب برؤياه، وقال يعقوب عليه السلام لابنه يوسف حين قصّ عليه ما رأى: لا تخبر إخوتك بما رأيت، حتى لا يحسدوك، ويحتالوا لك حيلة توقعك في مكروه، فإن الشيطان عدوّ واضح العداوة للإنسان: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾[سورة يوسف، الآية: ٥]، ومع ذلك فقد جاء إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، وقالوا لأبيهم مخادعين: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾[سورة يوسف، آية ١٢:١١] دعه يتنزه في البرية ويستأنس، فإننا سنراعيه، ونحفظه من أيّ أذى يريده[١]، فتظاهروا خداعا بمحبته ومؤانسته لأخذه معهم؛ ثمّ كان ما كان من رميه في الجبّ.

ولما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، بيع يوسف عليه السلام، بثمن بخس دراهم معدودة، واشتراه عزيز مصر، وأعجب به، وأوصى عليه امرأته بإكرامه؛كي ينتفع به بخدمتهما أو تستمتعا به كولدهما، مكث يوسف عندهم: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٢٢﴾[سورة يوسف، الآية: ٢٢] أي: لما بلغ منتهى شدته وقوته في شبابه وحَدِّه، وذلك فيما بين ثماني عشرة إلى ستين سنة، وقيل: إلى أربعين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة له في كتاب الله، ولا أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في إجماع الأمة، على ذلك [٢].

---

(١) السعدي، مرجع سابق، ٣٩٤

(٢) الطبري، مرجع سابق، ١٥/ ٢١- ٢٣

ثم جاءه الابتلاء الكبير بمراودة امرأة العزيز، وهذه المحنة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا، لأنه صَبَرَ صبْر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبْر اضطرار[١]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[سورة يوسف، الآية: ٢٣] فهو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر[٢].

لقد كان يوسف عليه السلام شابا قويا، غير متزوج، غريبا، وكانت المرأة جميلة ذات نفوذ وسلطان، مع غياب الرقيب بإغلاق الأبواب، والوضوح في الطلب بكلمة: هيت، والوعد بالسجن إذا لم يفعل، فكان عليه السلام ممن خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾[سورة يوسف، الآية: ٣٣] ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فليتدبر العاقل اللبيب هذه الدواعي التي دعت إليها يوسف مع توفرها وقوتها، ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك، ولا من ينجيه من المخلوقين، ليتبين له أن الذى ابتلي به كان من أعظم الأمور، وأن صبره وتقواه عن المعصية كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات[٣]. ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾[سورة يوسف، الآية: ٣٥] ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه عليه السلام، ليتم بذلك صبره وتقواه فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال[٤].

---

(٣) السعدي، مرجع سابق، ٣٩٦

(٢) مرجع سابق، نفس الصفحة

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ١٥/ ١٣٩

(٣) المرجع السابق، ١٥/ ١١٥

المطلب الثاني: المدافعة بالصبر والعاقبة بالانتصار

لقد علم يعقوب عليه السلام في قرارة نفسه ما حلّ بيوسف، وذلك أنه رأى من القرائن والأحوال ما يدلّ على كذبهم، وقال يعقوب عليه السلام لأبنائه: لقد زينت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[سورة يوسف، آية ١٣: ١٤] إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [سورة يوسف، الآية: ١٨] فصارحهم بما أسرّوه في أنفسهم، ولم يجد له من حلّ سوى الصبر، قائلاً لهم: فسأصبر صبرًا جميلا على هذا الأمر الذي قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، على ما تذكرون من الكذب والمحال[١].

ولما حانت لحظة الانتصار، كان ذلك الانتصار الجميل أيضاً كالصبر الجميل، فقد كان نصراً بلا انتقام، نصراً بلا تشفٍّ، ونصراً في أبهى صورة للتواضع، يقول سبحانه: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[سورة يوسف، الآية: ٨٩-٩٠]، قال النسفي: {هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ} أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف {وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جاهلون} إذ أنتم في حد السفه والطيش، وفعلهم بأخيه بتعريضهم إياه للغم؛ بإفراده

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٣٧٥

عن أخيه لأبيه وأمه، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى[١]. وقال أبو السعود: إنما قال ذلك نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقةً عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا[٢]. أما الشوكاني فيرى أنه قال ذلك للتوبيخ والتقريع، ويستفاد منه تعظيم الواقعة التي ارتكبوها، وهو عليه السلام أثبت لهم صفة الجهل لقصد الاعتذار عنهم، وتخفيف الأمر عليهم، لما يدهمهم من الخجل والحيرة[٣].

وتحدّث إخوة يوسف: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾[سورة يوسف، الآية:٨٩-٩٠]، "قالوا له ذلك استغراباً وتعجباً، وزاد عليه قوله{وهذا أَخِي} مبالغةً في تعريف نفسه وتفخيماً لشأن أخيه، فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلالِ، فأنا يوسفُ وهذا أخي قد منّ الله علينا بالسلامة والكرامة بالخلاص عما ابتُلينا به والاجتماعِ بعد الفُرقةِ والعزة بعد الذِلة والأُنس بعد الوحشة"[٤].

وبيّن يوسف عليه السلام أن هذا الانتصار الكبير ما حدث إلا بسبب الصبر والتقوى، { إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ } أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن

---

(١) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، ط ١، (: دار الكلم الطيب، بيروت ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م) ٢/ ١٣١

(٣) أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى،(المتوفى: ٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، د.ط، (: دار إحياء التراث العربي – بيروت)، ٤/ ٣٠٣. والبيضاوي، مرجع سابق، ٣/ ١٧٥

(٤) الشوكاني، مرجع سابق، ٣/ ٦٢

(٤) البيضاوي، مرجع سابق، ٣/ ١٧٥؛ وأبو السعود، مرجع سابق، ٤/ ٣٠٤

عملا[١]. ثم قالوا اعتذارا وإعلانا للحق واعترافا له بالفضل: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾[سورة يوسف، الآية: ٩١] فقد فضلك الله علينا بالصبر والتقوى وبكل الصفات الكريمة[٢]، ولقد "أسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد"[٣]، فقال يوسف عليه السلام مبينا العفو والصفح والتسامح: لا لوم ولا توبيخ ولا تأنيب لأحد منكم فيما صنعتم يغفر الله لكم ذنوبكم وهو أرحم الراحمين: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾[سورة يوسف، الآية: ٩٢].

يقول ابن كثير في تعليقه على قصّة يوسف عليه السلام وعظم صبره الذي أوصله للانتصار: "وفي هذا تعريض لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وإعلامه له بأنني عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته"[٤].

---

(١) السعدي، مرجع سابق، ٤٠٤

(٣) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، تحقق: محمد باسل عيون السود، ط١، (دار الكتب العلمية – بيروت– ١٤١٨ ه)، ٦/ ٢١٤، ومحمد سيد طنطاوي، مرجع سابق، ٧/ ٤١٣

(٤) السعدي، مرجع سابق، ٤٠٤

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٣٧٦

المبحث الخامس

صبر الصحابة رضي الله عنهم

المطلب الأول: عمق المحنة والابتلاء

مكث الصحابة ثلاث سنوات على الإيمان سرا، أما قومهم فقد كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأوثان، ولا حجة لهم إلا تقليد آبائهم، ولا سبيل لهم في حلّ مشاكلهم إلا بالسيف،:" فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا حضرت الصلاة يذهبون في الشعاب فيستخفون بصلاتهم من قومهم"[(١)]، فقد كان كفار قريش يثيرون الشغب والضجيج ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن[(٢)]: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[سورة فصلت، الآية: ٢٦]، أي: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وعارضوه بالخرافات أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوا على القارئ، لعلكم تغلبونه على قراءته[(٣)].

وكان صلى الله عليه وسلم إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا هؤلاء جلساؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام، الآية: ٥٣]، يقول ابن كثير: والغرض "أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: { أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ }؟ أي: ما

---

(١) ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط ٢، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٥٥ ٥-١٣٧٥م)، ١/ ٢٤٦

(٢) المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، ط ١،(دار الهلال – بيروت)، ١/ ٧٣.

(٣) البيضاوي، مرجع سابق، ٥/ ٧٠

كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير -لو كان ما صاروا إليه خيرا- ويدعنا"[١]، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، كما أنهم يضحكون على المؤمنين ويتغامزون إذا مروا بهم، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

ولما رأت قريش صبر الصحابة على الإيمان قرروا تعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم، فتفاجؤوا بثبات وصبر كالجبال، فما كان منهم إلا أن أنزلوا بالمسلمين الضعفاء ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب.

المطلب الثاني: المدافعة بالصبر والعاقبة بالانتصار

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هم فيه من وطأة المحنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم عليه، فخرج أصحابه إلى الحبشة، وهي أول هجرة في الإسلام[٢]. يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾[سورة الزمر، الآية: ١٠] ومعنى ذلك: إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم[٣]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾[سورة العنكبوت، الآية: ٥٦] ، وقوله أيضا: ﴿قَالُوا

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٢٦١

(٢) ابن هشام، مرجع سابق، ١/ ٣٢١، وما بعدها.

(٣) السعدي، مرجع سابق، ٧٢٠.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٧]، يقول السعدي: وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات[1]. وحكم الهجرة عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه[2].

وقد بين الله للصحابة عاقبة الصبر بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [سورة ال عمران، الآية: ١٢٠] والمعنى: أن الله يقول: سأنصركم عليهم إن صبرتم على طاعتي واتباع أمر رسولي، كما نصرتكم ببدر وأنتم أذلة، وإن أنتم خالفتم أمري ولم تصبروا على ما كلفتكم من فرائضي، ولم تتقوا ما نهيتكم عنه وخالفتم أمري وأمر رسولي، فإنه نازل بكم ما نزل بكم بأحُد[3]. يقول السعدي: هذه الآيات نزلت في وقعة (أُحد)، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة (بدر) لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم[4].

لقد نصر الله الصحابة في بداية غزوة أحد، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٢] ،

---

(١) السعدي، مرجع سابق، ١٩٥

(٤) السعدي، مرجع سابق، ٧٢٠.

(٥) الطبري، مرجع سابق، ٧/ ١٥٩.

(٦) السعدي، مرجع سابق، ١/ ١٤٥

وكان وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم النصر يومئذ إن انتــهوا إلى أمــره[١]، وكان النصر أول النهار للإسلام فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة، وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطا بالثبات والطاعة[٢]، قال الرازي: أنه تعــالى وعدكم النصر بشرط الصبر والتقوى فما دمتم وافين بهذا الشــرط أنجــزه وعــده ونصركم على أعدائكم، فلما تركتم الشرط وعصيتم أمر ربكم لا جرم زالت تلــك النصرة[٣]، ولما ذكر الله تعالى قصة أحد أتبعها بذلك قصة بدر، لأن المسلمين يوم بدر، كانوا في غاية الفقر والعجز، والكفار خلاف ذلك، ولكن الله سلط المســلمين علــى المشركين في بدر يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٢٣] ، وأما قوله (وأنتم أذلة) فيقــول الرازي: فلابد من تفسير الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو[٤].

ولقد أخبرنا الله سبحانه تعالى نصرته للمؤمنين في مواضع كثيرة يقول ســبحانه: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ﴾ [سورة التوبة، الاية: ٢٥] ، فهو وعد الله تعالى بنصرة رسله والذين آمنوا، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾[سورة غافر، الآية: ٥١].

---

(١) الطبري، مرجع سابق، ٧/ ٢٨١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ١٣٣.

(٣) فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ٩/ ٣٨٦.

(٤) فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ٨/ ٣٤٨.

الخاتمة

آن لنا أن نستروح بعد جولتنا بذكر أهم النتائج التي خرج بها البحث، وهي كالآتي:

١. تستخدم كلمة (الصبر) بحسب سياقاتها في الآيات القرآنية، فهي لفظة عامة، وربما خولف بين أسماء الصبر بحسب اختلاف مواقع السياقات.
٢. يأتي الصبر في القرآن بصور شتى مؤداها وعاقبتها الانتصار، الانتصار أولا على النفس الأمارة بالسوء، والضعف البشري، ثمّ الانتصار على الأعداء في محيطنا الخارجي.
٣. قضت سنة الله في الكون أن يكون للمؤمنين أعداء لما فيه من الابتلاء والتمحيص الذي هو سبب ظهور الصبر، ومن ثمّ عاقبته الانتصار.
٤. علم موسى عليه السلام أن الصبر من مؤهلات أرباب القيادة، وبنو إسرائيل لما كانوا مستضعفين، وحقّقوا في أنفسهم مرتبة (الصبر) منحهم الله السيادة والانتصار.
٥. بيّن يوسف عليه السلام أن الانتصار الكبير ما حدث إلا بسبب الصبر، وكان ذلك الانتصار الجميل أيضاً كالصبر الجميل، فقد كان نصراً بلا انتقام، ونصراً بلا تشفّي، ونصراً في أبهى صورة للتواضع.
٦. الانتصار الذي حصل للصحابة رضي الله عنهم جاء مشروطا بالصبر، وقد وفّوا بذلك وانتصروا من بعد ذلّة.

وختاماً لما سبق.. فإننا بحاجة الآن أكثر من أيّ وقت مضى إلى الاعتبار والنظر في ثنايا الأخبار القرآنية؛ حتى تكون نبراساً لنا في حسن الفهم لكتاب الله، والموصل إلى الانتصار المأمول.

وكان لزاماً على علمائنا وقادتنا الاعتبار بملاحظة سير الأنبياء عليهم السلام، وقصص القادة الصالحين، من خلال كتاب رب العالمين، وامتلاك وسيلة التفوّق الحضاري، وفهم القرآن كما فهمه السلف الصالح، فقادوا به الحضارة وسادوا به الدنيا..

وما توفيقي إلا بربّي.. عليه توكلت.. وإليه أنيب.. والله المستعان أولاً وآخراً،،

المصادر والمراجع

١. الآلوسي، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، د.ط.

٢. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، (دار طيبة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م)، تحقيق: محمد النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان الحرش، ط ٤

٣. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، ١٣٩١ه، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الهند، حيدرآباد الدّكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١

٤. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤١٨ هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١

٥. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ط١، (وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ).

٦. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الحسبة والإسلام، ط ٢، تحقيق: علي بن نايف الشحود

٧. ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، أبو العباس، مجموع الفتاوى، (دار الوفاء، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، تحقيق : أنور الباز – عامر الجزار، ط ٢

٨. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، ١٤٠٤ه، زاد المسير في علم التفسير، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣

٩. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد كاظم الراضي، ط١، (مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م).

١٠. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، (دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ه.). تحقيق: صدقي محمد جميل، د.ط.

١١. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، (مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ١٤١٥ /١٩٩٥)، تحقيق: محمود خاطر، ط.ج.

١٢. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، (دار القلم – دمشق)، د.ط.

١٣. ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، جامع العلوم والحكم، (دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٨ه)، ط١

١٤. رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، مصر: مطبعة المنار، ط٢

١٥. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط ٣، (دار الكتاب العربي – بيروت ١٤٠٧ ه).

١٦. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط ١، (مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م).

١٧. أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (دار إحياء التراث العربي – بيروت،)، د.ط.

١٨. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، (دار الفكر – بيروت)، د.ط.

١٩. سيد قطب إبراهيم حسين، في ظلال القرآن، (دار الشروق - القاهرة، ١٤١٢ هـــ)، ط١٧

٢٠. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير، (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت١٤١٤ هـــ)، ط١

٢١. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـــ - ٢٠٠٠ م)، تحقق : أحمد محمد شاكر، ط ١

٢٢. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـــ)، د.ط.

٢٣. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (دار الكتب العلمية – بيروت -١٤٢٢ هـــ). تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١

٢٤. فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، (دار إحياء التراث العربي – بيروت- ١٤٢٠)، ط٣

٢٥. ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن زكَرِيّا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، (اتحاد الكتاب العرب١٤٢٣ هـــ = ٢٠٠٢م) د.ط.

٢٦. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل، (دار الكتب العلميه – بيروت- ١٤١٨ هـــ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١

٢٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، (دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٨٤هـــ - ١٩٦٤ م)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢

٢٨. ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي، ١٣٩٥ه-١٩٧٥م، الروح، بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٩. ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبوبكر بن أيوب، زاد المعاد في هدي خير العباد، (مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م)، ط ٢٧
٣٠. ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبوبكر بن أيوب، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، (دار الكتب العلمية - بيروت). تحقيق: زكريا علي يوسف.
٣١. ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٩٣ - ١٩٧٣). ط٢
٣٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م) تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط ٢
٣٣. المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، (دار الهلال - بيروت)، ط ١
٣٤. محمد سيد طنطاوي، التفسير الآلوسيط للقرآن الكريم، (دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة)، ط ١
٣٥. الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة، ١٤٢٠ه-١٩٩٩م، الأخلاق الاسلامية وأسسها، دمشق: دار القلم، ط٥
٣٦. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٢)، ط ٢
٣٧. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (دار الكلم الطيب، بيروت ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م)، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط ١

٣٨. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، السيرة النبوية، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٥ ه-١٣٧٥م) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط ٢

٣٩. وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير الوسيط، (دار الفكر – دمشق، ١٤٢٢ هـ)، ط ١